وهج الذاكرة

تناغم المصالح

بقلم :
عبد الله خليفة السيد
جامعة قطر

قد يكون من السذاجة او التبسيط المفرط ان نعتقد بان الدعوة لاقامة دولة اسرائيل سرت بين اليهود فقط دون غيرهم من «سماسرة» الغرب ولكن بخلاف ذلك يقرر العديد من الباحثين ان الفكرة الصهيونية كفكرة «لم تقتصر العناية بها بين اليهود فحسب «وانما ساهم في ذلك وبشكل كبير ومؤثر الفكر المسيحي البروتستانتي الذي ظهر على الساحة الغربية خلال القرن السادس عشر - على يد مارتن لوثر - والتي تسمى حركة «الاصلاح» الديني حسب العقيدة المسيحية الغربية حيث تبنت قضايا غيبية وردت في كتب اليهود واحبارهم مثل اسطورة شعب الله المختار. وفحواها ان اليهود «امة» مفضلة عند الله على سائر الامم الاخرى ولهم ارتباط سرمدي دائم بالارض المقدسة - فلسطين - وبهذا منحت هذه الاسطورة فلسطين كارض لليهود هبة من الله.

قبل هذه الحركة كانت المسيحية التقليدية الكاثوليكية لاترى اي دليل على عودة اليهود الى فلسطين او لوجود مايسمى بالامة اليهودية، فهم قد اقترفوا اثما فهيا لهم الله الطرد من فلسطين الى بابل «في عهد نبوخذ نصر» ثم انكروا ان عيسى «عليه السلام» هو المسيح فنفاهم الله مرة اخرى من فلسطين وانتهى بذلك مايسمى بالامة اليهودية الى الابد. اما فلسطين في عقيدة الكاثوليك فتعتبر الوطن المقدس فقط لانه قد عاش فيها المسيح «عليه السلام» وبالتالي لم تكن اوروبا قبل عهد «الاصلاح» الديني تعتبر ان اليهود المعاصرين لهم قد قدر لهم ان يعودوا للارض المقدسة.. وفي رأيهم ان اليهودي ان كان مختارا لشيء فانه قد كان مختارا للعنة.. وكانوا يعتبرون اليهود مارقين ويوصفون دائما بانهم قتلة المسيح. واشد ماكان العداء لليهود في اوروبا ابان الحروب الصليبية حيث كان المحاربون المسيحيون الكاثوليك يقومون بمجازر ضدهم وهم في طريقهم الى فلسطين لمواجهة المسلمين «على خلاف ماكانوا ينعمون به من امن في المجتمعات العربية والاسلامية» وبسبب ذلك: ومنذ تلك الفترة اخذ اليهود ينعزلون في مجتمعات خاصة يطلق عليها «الجيتو» في المجتمعات الغربية.

ولكن حين ظهرت الحركة البروتستانتية وصفت بانها حركة بعث «عبرية» حيث خلقت اهتماما كبيرا بماضي اليهود وبمستقبلهم بشكل خاص وساد الاعتقاد بان اليهود «امة» مفضلة على سائر الامم وانه يجب عودتهم الى «ارضهم المقدسة» واصبح كتاب العهد القديم من اكبر الكتب شيوعا بين البروتستانت ومصدرا للمعلومات التاريخية مع العلم بانه كتاب تراث شعبي ليس له سند الا الذاكرة وكانت مساهمات البشر فيه كثيرة على مدى تسعة قرون وبلغات مختلفة ولم يكتسب شكله النهائي الا في القرن الاول لميلاد المسيح «عليه السلام» ومن خلال هذا الكتاب - العهد القديم بدأت عملية التزوير التاريخي. وتقلص تاريخ فلسطين بشكل تدريجي بحيث اقتصر على القصص المتعلقة بالوجود اليهودي وحده.. وكان شيئا لم يحدث بعد تلك الفترة.

وخلال القرن السادس عشر والسابع عشر ومع تنامي القوى الاوروبية ظهرت الكثير من الكتب والدراسات وقدمت العديد من العرائض والالتماسات تدعو «لاعادة اليهود الى «وطنهم» فلسطين كما امر الرب بذلك. «تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا».

يؤكد يوسف الحسن في كتابه«البعد الديني في السياسة الامريكية» بان هذه الافكار التي اصطبغت بصبغة دينية ساعد على تنامي دوافع سياسية واقتصادية اذ انه قبيل هذه الفترة بقليل. في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، كانت قد سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين - عام ١٤٥٣م - ثم سقط الحكم العربي في الاندلس - ١٤٩٢م - ثم في تلك الفترة اخذت البرجوازية الاوروبية في التنامي وبروز دورها القيادي في المجتمع وبدأت الاكتشافات الكبرى للطرق البحرية والثروات الخام واصبحت اوروبا نتيجة لذلك اكثر قدرة واستعدادا على استيعاب الوظائف اليهودية الاقتصادية واستخدامها في ميدان الصراع بين العواصم الاوروبية لتعزيز المواقع السياسية والجغرافية في بقية قارات العالم. واستجلبت تلك العواصم العديد من العائلات اليهودية التي كانت قد طردتهم في القرون السابقة. من اجل الاستفادة من خبرتهم.. خاصة في مجال التجارة الخارجية.. ومنذ ذلك الحين اصبح لليهود في اوروبا خاصة غرب اوروبا - سطوتهم وسلطاتهم على كثير من القرارات السياسية نتيجة لتنامي جشع الغرب لثروات بقية اقطار العالم ثم رغبتهم للاتساع الاستراتيجي بكافة مايحتويه هذا المعنى من دلالات سياسية وثقافية.

نتساءل الآن... هل هذا الاتساع الاستراتيجي بدأ يفقد بريقه لدى الغرب في اطار مايسمى بـ «النظام الدولي الجديد»؟.. وهل تخلى الغرب عن هذا النهج ام ان الاسلوب هو الذي قد تغير؟.. ثم هل فقدت اسرائيل - ومن ورائها اليهودية العالمية .. دورها في اطار هذه المتغيرات؟.. ان لنا في الاحداث المسموعة والمرئية «عبرة» للرد على هذه الاسئلة.